اللّغة العربيّة والتنوّع الثّقافي واللغوي الحضاري

د. رضوان بن خليل الدبسي

ملخص البحث:

لغتنا العربية، اللغة المقدسة، الشريفة، لغة التنزيل العزيز في محكم آيات القرآن المبين، فوجدت اللغة العربية مجالها الحيوي في عالمية الدعوة الإسلامية بوصفها لغة القرآن الكريم.

وقد واكبت اللغة العربية حركة النهضة الحضارية العربية الإسلامية، لتصبح لغة عالمية بفضل انتشار الإسلام، وفتحت صدرها لتراث الإنسانية، فأسّسَ العربُ لنهضةٍ علمية عالمية، قدمت معجزة رائدة في حضارة ثقافية لغوية متنوعة وجديدة، قامت على العلم والمعرفة والإيمان، والإنجازات المفيدة للإنسان، وتجلّت عالميتها بصورة واضحة عندما كانت البعثات العلمية من مختلف الأقطار الأوربية تؤمُّ مراكز الاشعاع في دمشق وبغداد وقرطبة .. للدراسة باللغة العربية وبمصادرها العلمية الفريدة في وقتها.

وقد أعددتُ بحثي، بما فتحَ اللهُ علي ... لأعرض في هذا البحث:

(لغتنا العربية المقدسة وعالميتها في الفكر الحضاري، والتي سادت العالم بحضارة ألف عام بشواهدها العالمية وبمناراتها الثقافية والإعلامية والعلمية والصحية .. ومسك الختام بتوصيات البحث والباحث - وبمصادر ومراجع البحث)

أولاً – لغة القرآن الكريم .. لغتنا العربية المقدسة:

قال الله تعالى في القرآن الكريم:

"الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ٢"

من سورة يوسف ١٢ – الآياتان ١ و ٢

وفي سورة الشعراء ٢٦:

" وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٩٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥ "

لغتنا العربية، لغةٌ مكتملةُ النموّ، استطاعت أن تُعبّرَ عن دقائق المشاعر الإنسانية والصور والأحاسيس، وهي التي حدّدتْ هُويّة العربي، يشدو بها مُنطلقاً في جزيرته العربية بأجمل الصور الشعرية، وأعذب الرؤى النثّرية، وهي تنحو في ثنايا تكوينها وخصائصها الذاتية منحىً إنسانياً، وعالمياً، يصل إلى آفاق العالمية والإنسانية. وقد تجسَّدَ هذا المنحى عندما أصبحت العربيةُ لغةَ الوحي الإلهيّ، اختارها الله – سبحانه وتعالى – لغةَ التنزيل العزيز في محكم آيات القرآن العربي المبين، وهكذا وجدت مجالها الحيوي في عالمية الدعوة الإسلامية بوصفها لغة القرآن الكريم. وقد واكبت اللغة العربية حركةَ النهضة الحضارية العربية الإسلامية وأصبحتْ، في عصورها، لغةً عالميةً بفضل انتشار الإسلام، وفتحت صدرها لتراث الإنسانية، وحفظت ما تركه الأقدمون، فأسّسَ العربُ لنهضةٍ علمية، قدّمتْ معجزة في حضارة جديدة، قامت على العلم والمعرفة والإنجازات المفيدة للعالمين انطلقت من هذه الأرض العربية مع الفاتحين، رسل الحضارة والعلم والفكر والإيمان.

ثانياً – عالمية اللغة العربية في الفكر الحضاري العالمي:

تحولت لغتنا العربية إلى لغة عالمية عبر العصور الإسلامية المتعاقبة لأنها واجهت لغاتٍ وحضاراتٍ متعدّدة، فأثبتَتْ أصالتَها واستيعابها لكل جديد في هذه الحضارات التي طوّعَتْها وفقَ معاييرها العربية الإسلامية العالمية.. وأصبحت اللغة العربية لغةَ جميع الشعوب المنتسبة إلى الدولة العربية، والرابطَ الأساسي للعلم والفكر، والعمل والدين والحياة... وبذلك كانت اللغة العالمية الأولى في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري.. وتجلّت عالميّتُها بصورة واضحة، عندما كانت البعثات العلمية

من مختلف الأقطار الأوربية تؤمُّ مراكزَ الإشعاع الثقافي في دمشق وقرطبة وإشبيلية وغرناطة.. وغيرها للدراسة باللغة العربية وبمصادرها العلمية العربية الفريدة في وقتها. واحتلتْ – بذلك – اللغةُ العربية والحروف العربية والأرقام العربية مكانةَ الاحترام والقداسة والتقدير في نظر وآراء جماهير تلك الشعوب، فانفردت اللغة العربية بتحقيق هذه العالمية من بين جميع لغات الأمم الأخرى.. لأنها أصبحت لغةَ الفكر والثقافة، والعلم والإدارة، والمراسلات والتجارة، والطبِّ والهندسة، ووسيلةَ الاتصالات الدولية.. والآداب والحياة اليومية.

بعالمية لُغتنا، احتفلت بيروت (عاصمة الكتاب العالمي لعام ٢٠٠٩م)، والقدس (عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٩م) ودمشق (عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٨م) وتتوجّت مؤخراً الشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة) عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠١٤ هـ

سلِ المعالي عَنّا إنّنا عربٌ
شعارُنا المجدُ يَهوانا ونَهواهُ
هي العروبةُ لفظٌ إنْ نطقتَ به
فالشرْقُ والضَادُ والإسلامُ مَعناهُ

ثالثاً – اللغة العربية سادَت العالمَ بحضارة ألف عام: عبارة ذهبيّة خالدة:

(كانت العربيّة لغة العلوم والرياضيات والطب والسياسة والدبلوماسية، وظلَّ العلماء الرياضيون والبنّاؤون والأطبّاء والمؤرخون المسلمون والعرب أساتذة الأساتذة وفلاسفة الفلاسفة ومعلمي المعلمين نحو ألف عام)! ... ذكرَها سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم في كتابه (رؤيتي)، إيماناً من سموّه بقيمة لغتنا العربية التي سادتْ بها حضارتُنا العربية العالمَ قاطبةً، وهو القائل في قصيدته العصماء (اللغةُ الخالدة):

يا كاتبَ المجد سجّلْ عن مآثرنا
ما قَدْ يروقُ لحسّادٍ ولمْ يَرُقِ
يا كاتبَ المجد خَبّرْ عن تقدّمنا
ومن عجائب الزّمانِ سُقِ
وكيفَ أنّا أعدْنا شمسَ أمّتنا
من بعد أنْ قاربَتْ تدنو من الغَسَقِ
نُلنا الثّناءَ من الدّنيا فسيرتُنا
كسيرة الورد في الأشواق والعَبَقِ

مآثرُنا في حضارتنا التي حملَ مشاعلَها علماءٌ موسوعيون.. برزوا في الفقه والتفسير، والحكمة والتنوير، وفي علمهم بالفلك والطبِّ والهندسة والزخرفة والتعمير، وتألقوا بالنثر والشعر والأدب والفكر المنير. كتبوا بلغتهم العربية حضارات الأمم العربية وغير العربية بمخطوطاتهم التي جاوزتْ مئات الملايين.. وانتفعَ بها أناسٌ من مئات الملايين.. ونشروا كتبهم بعربيّتهم، والتي جاوزت لأحدهم وهو العلامة السيوطي التسعمئة كتاب، وجمعها محبّوها في أنحاء العالم فخراً بالحضارة التي فيها.. فكانت، مثلاً، مكتبةُ الصاحب بن عبّاد في القاهرة تحوي أكثر من مليوني كتاب، في الوقت نفسه الذي كانت أوروبا كلُّها لا تضمّ أكثرَ من مليون كتاب! وشواهدُ هذه الحضارة ومآثرُها وآثارُها خالدةٌ في أذهانِ الفكرِ البشري لا تمحوها السُّنونُ ولا ينكرُها الحاقدون. ثمارُ حضارة عالمية متجدّدة، نافعة للبشرية قاطبة، كنعمِ الله سبحانه وتعالى التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

رابعاً – لغتنا العربيّةُ المقدسة .. لغةُ علم وحضارة:

هذي ميادينٌ العلوم مصانعُ
الفكر، فاقطفْ من جَناكَ منَالا
وارتَعْ بأرض قدْ غَرستَ غراسَها
وسَقْيتَها النَّبْضَ السَّخيَّ زُلالا
وأرِحْ فؤاداً قد أطالَ رحيلَهُ
مُتَدرّعاً همَمَ البناء ثقالا

ميادينُ العلم، ومَصانعُ الفكر، هي الشواهدُ والآثارُ الخالدة، لتلك المآثر الخالدة.. التي غرسها علماؤنا الأوائل وجنى ثمارها الأوائل واللواحق من شعوب الأمم المختلفة القريب منا والبعيد عنا.. من أرضنا العربيّة الخيّرة.. انطلقت الأبجديةُ والكتب وشاعت فيها المدارس والمعاهد والمستشفيات.. من أمير النور إلى أمير الأطباءِ الرئيس ابن سينا إلى ابنِ رضوان عميد أطباء القاهرة والملقب بتمساح الشياطين!... وتعلّم الناسُ منّا المناهج التجريبية.. وحيلَ التّقنيات الهندسية.. وكان الاسطرلابُ الفلكيّ الزمني في عصره.. كالحاسوب أهميّةً في عصرنا.. وبرزَ ابنُ معروف الدمشقيّ "كأبي التكنولوجيا عند المسلمين"... وأضاءَتْ حضارتُنا الظُّلمات.. وعمَّ خيرُها وضياؤُها أبناءَها.. وغير أبنائها، ماذا أعدّد؟.. بل ماذا أذكرُ من شواهد وآثار فهي لا تُعدُّ ولا تحصى..